البابُ الثالث

كتبُ الزواجر والعظات

الرسالة الأولى

ومن ذلـك فى مخاطبة ابن مرزوق :

سيدى ، الذى يده البيضاء تذهب بشهرتها المكافآت ، ولم تختلف فى مدحها الافعال ولا تغيرت فى حمدها الصفات ، ولا تزال تعترف بهـا العظام الرفات . أطلقك الله من اسر كل الكون ، كما أطلقك من أسر بعضه، وزهدك فى سمائه وفى أرضه ، وحقر الحظ فى عين بصيرتك بما يحملك على رفضـــه .

---

1) هو الشيخ ابو عبد الله محمد بن احمد بن محمد بن ابى بكر بن مرزوق ، الملقب بشمس الدين والمعروف بالخطيب . ولد بتلمسان عام 710 هـ ، وتربى بها ، ثم صحبه ابوه الى الحج ، واثناء هذه الرحلة تسنى له الجلوس الى نخبة من علماء المشرق ، فاخذ عنهم دروس الشريعة والادب واللغة ، ثم عاد عام 733هـ ليجد السلطان ابا الحسن محاصرا لتلمسان حتى استولى عليها ، فتقرب اليه وفى نفسه طموح ، فاسند اليه امامة المسجد الذى انشاه هناك ، ولم يترك ابن مرزوق مناسبة عند السلطان الا واغتنم فرصة مدحه ، فتوطدت علاقته به ، حتى اضحى من خواصه المقربين ، ولعل من مظاهر ذلك انه رافقه فى « معركة طريف » بالاندلس (جمادى الاولى 741 هـ / 30 اكتوبر 1340 م) ثم اوفده على راس سفارة الى الانفوش الحادى عشر ملك قشتالة لابرام الصلح ، بعد الهزيمة التى منى بها الجيش المغربى والاندلسى اثر تلك المعركة . وبقـى ابن مرزوق اثيرا هكذا حتى توفى ابو الحسن المرينى ، وتولى بعده ابنه ابـو عنان ، ولكن ابن مرزوق لم يصادف عنده سابق مكانته عند والده ، فانقطـع للعبادة بعض الوقت ، الا ان طموحه دفعه الى الاتصال ببنى عبد الواد بغية التزلف اليهم ، بيد أن هؤلاء لم ينسوا مواقفه السابقة ضدهم عند السلطان ابى الحسن ، وهناك اتصل بلسان الدين ابن الخطيب وزير دولة بنى نصر يومئذ ، فاعانه على أمره ، واستصدر له ظهير تعيينه خطيبا للمسجد الاعظم بغرناطة. هذا ، وقد استدعاه السلطان ابو عنان المرينى عام 745 هـ بعد استرجاع هذا لتلمسان ، وصار فى طليعة بلاطه طيلة اربع سنوات ، حتى اوفده سفيرا الى السلطان الحفصى ابن يحيى ليخطب له منه ابنته ، ولكن التوفيق لم يحالف ابن مرزوق فى هذه المهمة ، فكان نصيبه السجن بعد عودته ، اذ ترامى الى سمع ابى عنان ان هذا الفشل يرجع الى عدم استغلال سفيره لنفوذه المعروف لـدى الحفصيين ، وظل بالسجن قرابة سنتين ، ثم أفرج عنه ليعاود سابق مغامراته السياسية عند السلطان ابن سالم المرينى ، وتمكن بدهائه من أن يصبح من

اتصل بى الخبر السار من تركك لشأنك ، وأجناء الله اياك احسانك وانجياب ظلام الشدة (135 : ب) الحالك عن أفق حالك . فكفوت ارتياحا لانتشاق رضا الله الطيب الارج ، واستعبرت لتضاؤل الشدة بين يدى الفرج ، لا بسوى ذلك من رضا مخلوق يؤمر فيأتمر ، ويدعوه القضاء فيأتمر ، انما هو فىء وظل ليس له من الامر شىء .

ونسأله ــ جل وتعالى ــ أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا وبنيها ، وأول معارج نفسك التى تقربها من الحق وتدنيها . وكأننى ــ والله ــ أحس بثقل هذه الدعوة على سمعك ومضادتها ، ولا حول ولا قوة الا بالله لطيفك . وأنا أنافرك الى العقل الذى هو قسطاس الله فى عالم الانسان ، والآلة لبث العدل والاحسان ، والملك الذى يبين عنه ترجمان اللسان . فأقول :

ليت شعرى ما الذى غبط سيدى بالدنيا وان بلغ من زبرجها (2) الرتبة الاولى . وأفرض المثال بحال اقبالها ، ووصل حبالها ، وخشوع جبالها ، وضراعة سبالها ! ! ألتوقع المكروه صباح مساء ، وارتقاب الحوالة التى تزيل من النعم الباساء ، لزوم (136 : أ) المنافسة التى تعادى

كبار مستشاريه ورفاقه ، واستمر هكذا فترة لم تطل ، فقد استولى الوزير ابو عبد الله على مقاليد الحكم ، وخلع السلطان أبا سالم ، وبالتالى قبض على ابن مرزوق ، وألقى به فى السجن .

وتبعا لما تضمنته هذه النبذة من حياة هذا الرجل ؛ ومدى الصعاب والعقبات التى صادفت حياته ــ وهو المعروف بثقافته وعلمه ، الى جانب عدم قناعته بما يسره الله اليه ــ يعقد كثير من المؤرخين والنقاد مقارنة بينه وبين صديقه ومعاصره لسان الدين ابن الخطيب الذى يكاد يتفق معه فى تلك الظروف ، وهذه الاتجاهات النفسية ، وربما فسرنا الصلة التى كانت قائمة بين الرجلين على هذا الاساس ، ولعل المتصفح للرسالة التى نقدمها الآن يرى من فحواها ملامح الاحوال التى كان يجتازها ابن مرزوق ، والتى رأى فيها ابن الخطيب صورة من سابق تجاربه ، وخلاصة مواقفه السياسية فى كنف هذا أو ذاك ، فأخذ يمحض النصح لصديقه من واقع تجاربه فى هذه الميادين .

2) الزبرج . بكسر الزاى وسكون الباء . معناه الزينة من وشم أو نحوه ، والجمع منه زبارج وفعله زبرج بزنة فعلل ، بمعنى حسن الشىء وزينه .

الاشراف والرؤساء ؟ الترتيب العدل حتى على التقصير فى الكتب ، وظعينة جار الجنب ، وولوع الصديق باحصاء الذنـــب ؟

النسبة وقائع الدولة اليك ، وأنت غى عـرى ؟

الاستهدافك للمضار التى تنتجها غيرة الفروج ، والاحقاد التـى تضطبنها (3) ركبة السروج ، وسرحة المروج ، ونجوم السماء ذات البـــــروج ؟

التقيدك لتقصير ، فما ضاقت عنه طاقتك ، وصحت اليه فاقتك ، من حاجة لا يقتضى قضاءها الوجود ، ولا يكيفها الركوع للملك والسجود ؟

القطع الزمان بين سلطان بعبد ، وأفكار للغيوب تكبد ، وعجابة شـــر تلبد ، ولقبوحة تخلد وتؤبد ؟

الوزير يصانع ويدارى ، وذى حجة صحيحة يجادل فى مرضـــاة السلطان ويمارى ، وعورة لا توارى ؟

المباكرة كل عاجب حاسد ، وعدو مستاسد ، وسوق ــ للانصاف والشفقة ــ كاسد ، وحال فاســـد ؟

اللعقود تتزاحم بسدتك ، مكلفة للنفير (136 : ب) ما فى طوقك ؟

فان لم يقع الاسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ؟

الجثاء ببابك لا يقطعون زمن رجوعك وايابك ، الا بقبيح اغتيابك ، فالتصرفات تمقت ، والقواطع النجومية توقت . والافعى تبث ، والسعايات تحث ، والمساجد يشتكى فيها البث . يعتقدون أن السلطان فى يدك بمنزلة الحمار المدبور ، واليتيم المحجور ، والامير المأمور ، ليس له سهوة ولا

---

3) تضطبنها : تحملها ما بين الكشح والابط ، وفعله ضبن بفتحتين ، بمعنى حمله فوق الضبن ، والضبن بتشديد الضاد مع الكسر وسكون الباء ما بين الكشح والابط كما ذكرنا ، وتبعا لهذا يقال فلان فى ضبن فلان ، أى فى كنفه .

غضب ، ولا أمل فى الملك ولا أرب ، ولا موجدة لاحد كامنة ، وللشر ضامنة !! وليس فى نفسه عن أى نفرة ، ولا بازاء ما لا يقبله نزوة أو طفرة !!

انما هو جارحة لصيدك ، وعاث فى قيدك ، ودالة لتصرف كيدك ، وأنك علة حيفه (1) ومسلط سيفه .

ألشرار يسملون عيون الناس (2) باسمك ، ثم يمزقون بالغيبة فزق جسمك . قد تنخلهم الوجود اخبث ما فيه ، واختارهم السفيه فالسفيه ؟ اذا الخير يستره الله عن الدول أو يخفيه ، ويقنعه بالقليل فيكفيه ، فهم يمتاحون بك (137 : أ) ويولونك الملامة ، ويفتحون عليك القول ، ويسدون طرق السلامة . وليس لك ــ فى اثناء هذه ــ الا ما لا يعوزك مع ارتفاعه ، ولا يفوتك مع انقشاعه ، وذهاب صداعه ــ من غداء يشبع ، وثوب يقنع ، وفراش ينيم وخديم يقعد ويقيم !!

وما الفائدة فى فرش تحتها جمر الغضا ؟ ومال من ورائه سوء القضا ؟ وجاه يحلق عليه سيف منتضى ؟ واذا بلغت النفس الى الالتذاذ بما تملك ، واللجاج حول المسفك ، الذى تعلم أنها فيه تهلك ــ فكيف تنسب الى نبل ، أو تسير من السعادة فى سبل !! وان وجدت فى القعود بمجلس التحية ، بعض الاريحية فليت شعرى أى شىء زادها ، أو معنى أفادها ، الا مباكرة وجه الحاسد ، وذى القلب الفاسد ، ومواجهة العدو المستأسد !! وشعرت ببعض الايناس ، فى الوكوب بين الناس ، هل التذت الا بحلم كاذب أو جذبها غير الغرور مجاذب ؟

انما راكبك من يحدق الى الحلبة والبزة ، (137 : ب) ويستظل مدة العزة ، ويرتاب اذا حدثت بخبرك ، ويتبع بالنقد والتجسس مواقع

---

1) حيفه : ظلمه .

2) يسملون عيون الناس . يفقئونها ، والسمال هو من يقوم بهذا العمل . والتعبير اذن على سبيل المجاز ، والقصد ان هؤلاء الاشرار يرتكبون افعالهم ضد الاخرين باسم المخاطب هنا .

نظرك ، ويمنعك من مسايرة أنيسك ، ويحتال على فراغ كيسك ، ويضمر الشر لك ولرئيسك . وأى راحة لمن لا يباشر قصده ، ويسير ــ متى شاء ــ وحده ! ولو صح ــ فى هذه الحال لله حظ وهبه زهيدا ، أو عين الرشد عملا حميدا ، لساغ الصاب ، وحفت الاوصاب ، وسهل المصاب . لكن الوقت أشغل ، والفكر أوغل ، والزمن قد عمرته الحصص الوهمية ، واستنفدت منه الكمية . أما ليله ففكرة ونوم ، وعتب يجر الضرائر ، وأما يومه فتدبير ، وتقبيل ودبير ، وأمور يعيا بها تبير ، ولفظ فيه حكيم كبير وبلاء مبير (1) ، وأنا ــ بمثل ذلك خبير .

والله يا سيدى ــ ومن فلق الحب ، وأخرج الاب (2) ، وذرا ما مشى وما دب ، وهدأ وأكب ، وسمى نفسه الرب ــ لو تعلق المال الذى يجره هذا الكدح ، يرى سقطه هذا القدح ، بأذيال الكواكب ، وزاحمت البدر بدره (138 : أ) بالمناكب . لا رامه عقب ، ولا خلص فيه محتقب ، ولا فاز به سافر ولا منتقب ، والشاهد الدول ، المشائيم الاول . فأين الرباع المنتقاة ؟ وأين الحوائط المغترسات ؟ وأين الذخائر المختلسات وأين الودائع المؤملة ، والامانات المحملة ؟

(تكفل) الله بتثبيرها ، وادناء نار التبار من دنانيرها ، فقلما تلقى أعقابهم الاعرى الظهور ، مترفقين بجرايات الشهور ، متعللين بالهباء المنثور ، يطردون من الابواب التى حجب عندها آباؤهم ، وعرف منها اباؤهم ، وشم من مقاصيرها عنبرهم وكباؤهم ، لم تسامحهم الايام الا فى ارث محرره ، والا حلال مقرره ، وربما محقه الحرام ، وتعدى منه المرام . هذه ــ أعزك الله ــ حال قبولها المرغوب فيه ، وما لها مع الترفيه ، وعلى فرض أن يستوفى العمر فى العز مستوفيه . وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم ، وحوت يغى يتبلغ ويلتقم .

---

1) مبير . مهلك ، ويقولون عن الدنيا « دار البوار » أى الهلاك .
2) الاب . معناه هنا ما كان رطبا أو يابسا من العشب .

وطبق يحجب الهوا ، وتطيل ترب الثوى ، وثعبان قيد بعض الساق ، (138 : ب) وشؤبوب (1) عذاب ، يمرق الابشار الرفاق ، وغلل يديها الواقب الغاسق ، ويجرعها العدو الفاسق . فصرف السوق ، وسلعته المعتادة الطروق ، مع الافول والشروق .

فهل فى شىء من هذا مغتبط لنفس حرة ، أو ما يساوى جرعة حال مرة ؟ ؟

واحسرتا للاحلام ضلت ، وللاقلام زلت ! ! ويالها من مصيبة جلت!

ولسيدى أن يقول : حكمت على باستثقال الموعظة واستجفائها ، ومراودة الدنيا بين خلانها واكفائها وتناسى عدم وفائها .

فاقول : الطبيب بالعلل أدرى ، والشفيق ـ بسوء الظن ـ مغرى . وكيف وأنا أقف على المساءة بخط يد سيدى من مطارح الاعتقال ، ومثاقف النوب الثقال ـ وخلوات الاستعداد ، للقاء الخطوب الشداد (وحافات) الاسنة الحداد وحيث يجمل بمثله الا يصرف ـ فى غير الخضوع لله ـ بنانا ، ولا يثنى ـ لمخلوق ـ عنانا . وأتعرف أنها قد ملت الجو والدو ، وقصدت الجماد والبو ؟ تقتحم أكف أولى الشمات ، (139 : أ) وحفظة المذمات ، وعوان النوب الملمات ، زيادة فى الشقاء ، وقصدا حريا من الاختيار والانتقاء ، مشتملة من التجاوز على أغرب من العنقاء (2) ، ومن النفاق على أشهر من البلغاء ؟ فهذا يوصف بالامامة ، وهذا ينسب فى الجود الى كعب ابن أمامة ، وهذا يجعل من أهل الكرامة ، وهذا يكلف

---

1) الشؤبوب . فعله « شأب » مثلث الفتحات ، والجمع منه « شآبيب » ، وهى لغة بعدة معان منها . الدفعة من المطر ، وشدة حر الشمس ، وحد كل شىء وشدة اندفاع كل شىء واول ما يظهر من الحسن ، ولعل قصد المؤلف هنا هو الحد المندفع بدليل السياق والوصف له .

2) العنقاء . تطلق على طائر مجهول تخيله العرب ، يقول شاعرهم :

نبئت ان المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفى

الدعاء وليس من أهله ، وهذا يطلب منه لقاء الصالحين وليسوا من شكله ، الى ما احفظنى ــ والله ــ من البحث عن السموم ، وكتب النجوم ، والمذموم من المعلوم ؟ هلا كان من ينظر فى ذلك قد قوطع بتاتا ، واعتقد أن الله قد جعل من الخير والشر ميقاتا ، وأنا لا أملك موتا ولا نشورا ولا حياة ، وان اللوح قد حصر الاشياء محوا واثباتا . فكيف نرجو لما منع منالا ، أو نستطيع مما قدر ــ افلاتــا ؟ ؟ ! !

أفيدونا ما يرجح العقيدة المتقررة نتحول اليه ، وبينوا لنا الحــق نعول عليه ، الله الله يــا سيدى فى النفس المرشحة ، والذات المحــلاة بالفضائل الموشحة ، والسلف الشهير (139 : ب) الخير ، والعمــر المشرف على المرحلة بعد حث السير ؟ ودع الدنيا لاهلها ، فما أوكس حظوظهم ! وأخس لحوظهم ! واقل متاعهم ! وأعجل اسراعهم ! وأكثــر عناءهم ! واقصر اناءهــم !

مــا ثم الا مــا رأيت ، وربما تعيى السلامة
والناس امــا حائــر أو حائــد يشكو ظلامــة
واذا أردت العــز لا تزرى بنى الدنيــا قلامــة
والله ما احتقب الحريص سوى الذنوب أو الملامة
هــل ثم شك فى المعاد الحــق أو يوم القيامــة
قولوا لنا ما عندكم ــ بالله ــ أهل الخطابة والملامة

وان رميت بأحجارى ، وأوجزت المر من أشجارى ، فوالله ما تلبست اليوم بشىء قديم ولا حديث ، ولا استأثرت بطيب فضلا عــن خبيث . وما أنا الا عابر سبيل (1) وهاجر مرعى وبيل ، ومرتقب وعــد

1) التعبير جاء اقتباسا من الحديث النبوى الشريف : « كن فى الدنيا كانك غريب ، أو عابر سبيل ، وعد نفسك من اهل القبور » تزهيدا فى الدنيا وتحذيرا منها ..

أقدر فيه الانجاز . وعاكف على حقيقة لا تعرف المجاز . قد فررت من الدنيا كما نفر من الاسد ، وحاولت قطع المداخلة حتى (140 : أ) بين روحى والجسد . فلم أبق عادة الا قطعتها ، ولا جنة للصبر الا ادرعتها ، أما اللباس فالصوف ، وأما الزهد فى ما بايدى الخلق فمعروف ، وأما المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف . والله لو علمت أن حالى هذه تتصل ، وعراها لا تنفصل ، وترتيبى هذا يدوم ، ولا يجرنى الوعد المحتوم ، والوقت المعلوم ــ لمن أشفى ، وحسبى الله وكفـــى .

ومع هذا يا سيدى ، فالموعظة تتلقى من لسان الوجود ، والحكمة ضالة المؤمن ببذل المجهود ، ويأخذها ــ من غير اعتبار بمحلها ــ المذموم ولا المحمود . ولقد اعملت نظرى فيما يكافىء عنى بعض يدك ، أو ينتهى فى الفضل الى امدك ، فلم أر فى الدنيا لك كفاء ، لو كنت صاحب دنيا ، ووجدت بذل النفس قليلا من غير شرط ولا ثنيا ، لما الهمنى الله ــ جـــل جلاله ــ الى مخاطبتك بهذه النصيحة المفرغة فى قالب الخفا ، ولا يعرف قارورة الدنيا معرفة مثلى من المتدنسين بها المنهمكين ، وينظر أغوارها الفالح بعق اليقين ، (140 : ب) ويعلم أنها المومسة التى حسنها زور ، وعاشقها مغرور ، وسرورها شرور . تبين لى أنى قد كافأت صنيعتك المتقدمة ، وخرجت عن عهدتك الملتزمة .

وأمحضت لك النصح الذى يعز ــ بعز الله ــ ذاتك، وبطيب حياتك، ويحيى موتاك ، ويريح جوارحك من الوصب، وقلبك من النصب، ويحقر الدنيا وأهلها فى عينيك اذا اعتبرت وبلاشى عظائمها لديك اذا اختبرت ، كل من يقع عليه عينك حقير قليل وفقير ذليل لا يفضلك بشىء الا باقتناء رشد ، أو ترك غـــى ، أثوابه النبيهة يجردها الغاسل ، وعروته يفصلهـــا الفاصل ، وما له الحاضر الحاصل ، يعيث فيه الحسام الناصل . والله ما تعين للسلف ، ولا يصير المجموع الا الى التلف ، ولا صح من الهيـــاط

والمياط (1) . والصياح والعياط ، وجمع القيراط الى القيراط ، والاستظهار بالموزعة والاشراط والخبط والخباط ، والاستنكار والاغتباط ، والغلو (141 : أ) والاشتطاط ، وبناء الصرح وعمل الساباط ، ورفع العماد وادارة الفسطاط ، الا ألم لم يذهب القوة ، وينسى الآمال المرجوة ، ثم نفس يصعد ومكبرات تتردد وحسرات ــ لفراق الدنيا ــ تتجدد ولسان يثقل ، وعين تبصر الفراق الحق وتمقل . « قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون(2)» ثم القبر وما بعده ، والله منجز وعيده ووعده . فالاضراب والتراب التراب .

وان اعتذر سيدى بقلة الجلد ، لكثرة الولد ، فهو ابن مرزوق لا ابن رازق ، وبيده من التسبب ما يتكفل بامساك أرماق . أين النسخ الذى يتبلغ الانسان بأجرته ، فى كن حجرته ، لا ، بل السؤال الذى لا عار عند الحاجة بمعرة السؤال ، والله أقوم طريقا ، وأكرم فريقا ، من يد تمتد الى حرام ، لا تقوم بمرام ، ولا تؤمن من ضرام أخربت غيه الحلل وقلبت الاديان والملل . وضربت الابشار ، ونحرت العشار ، ولم يصل منه على يد واسطة السوء المعشار ، ثم طلب عند الشدة ففضح ، وبان (441 : ب) شؤمه ووضح . الله طهر منا أيدينا وقلوبنا ، وبلغنا من الانصراف اليك مطلوبنا ، وعرفنا بمن لا يعرف غيرك ، ولا يسترفد الا خيرك ، يا الله .

وحقيق على الفضلاء ــ ان جنح سيدى منها الى اشارة ، وأعمل فى اجتلائها اضباره (3) ، أو لبس منها شارة ، أو تشوف لخدمة امارة ــ الا يحسنوا ظنونهم بعدها بابن اياس ، ولا يغتروا بسمة ولا خلق ولا لباس ، فما عدا بدا ، تقضى العمر فى سجن وقيد ، وعمرو وزيد ،

---

1) الهياط والمياط ، تعبير يطلق على حالة الاضطراب والمجيء والذهاب ، وفعل الاول هاط بمعنى ضج واجلب ، والمصدر الهيط والهياط .

2) سورة « ص » آية : 67 ــ 68 .

3) الاضبارة : الحزمة من السهام أو الصحف ، والجمع اضابير وفعله .ل ضبر مثلث الفتحات .

وشر وكيد ، وطراد صيد ، وسعد وسعيد وعبد وعبيد . فمتى تظهر الابكار ، ويقر القرار ، وتلازم الاذكار ، وتشام الانوار ، وتنجلى الاسرار ، ثم يقع الشهود التى تذهب معه الاخبار ، ثم يحق الوصول الذى اليه من كل سواء القرار ، وعليه المدار . وحق الحق الذى ما سواه فباطل ، والفيصل الرحمانى الذى بابه الابدى هاطل ، ما شابت بخاطبتى هذه شائبة تريـــب .

ولقد محضت ما لم يمحضه للحبيب الحبيب ، فتجمل الذى جملت (142 : أ) عليه الغيرة ، ولا تظن بى غيرة . وان لم يكن قدرى مكاشفة سيادتك بهذا البث ، فى الاسلوب الغث ، فالحق أقدم ، وبناؤه لا يهدم . وشأنى معروف فى مواجهة الجبابرة ، على حين يدى ــ الى رفدهم ــ ممدودة ، ونفسى من النفوس المتهافتة عليهم معدودة !! وشبابى فاحم ، وعلى الشهوات مزاحم . فكيف اليوم مع الشيب ، ونصح الجيب ، واستكشاف العيب ، وانما أنا اليوم على كل من عرفنى ــ كل ثقيل ، وسيف العدل فى كفى صقيل . أعذل أرباب الهوى ، وليست النفوس فى القبول سواء ، ولا لكل مرض دواء ، وقد شفيت صدرى ، وان جهلت قدرى فاحملنى ، حملك الله على الجادة الواضحة ، وسحب عليك ستر الابوة الصالحة ، والسلام .

الرسالة الثانية

ومن ذلك ما صدر عنى فى هذا الغرض بما نصه :

الحمد لله الولى الحميد ، المبدى المعيد ، البعيد فى قربه من البعيد فى بعده ، فهو أقرب من حبل الوريد (142 : ب) . محيى قلوب العارفين بتحيات حياة التوحيد ، ومغنى نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار الى الغرض الزهيد ، ومخلص خواطر المحققين من سجون حجون التقييد الى فسح التجديد ، نحمده وله الحمد المنتظمة درره فى سلوك الدوام وسموط التأييد ، حمد من نزه أحكام وحدانيته وأعلام فردانيته عن مرابط التقليد فى مخابط الطبع البليد . ونشكره شكر من افتتح بشكره أبواب المزيد . ونشهد أنه الله الذى لا الاه الا هو ، شهادة نتخطى بها معالم الخلق الى حضرة الحق على كنز التفريد .

ونشهد أن محمدا عبده ورسوله قلادة الجيد المجيد ، وهلال العيد ، وفذلكة الحساب وبيت القصيد ، المخصوص بمنثور الادلال ، واقطاع الكمال ، ما بين مقام المراد ومقام المريد ، الذى جعله السبب الاوصل فى نجاة الناجى وسعادة السعيد .

وخاطب الخلائق على لسانه الصادق بحجتى الوعد (143 : أ) والوعيد ، فكان مما أوحى به اليه ، وأنزل الملك به عليه من الذكر الحميد ، ليأخذ بالحجر والاطواق من العذاب الشديد ، « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ، ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (1).

صلى الله عليه وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقه الاكيد ، وتسرى الى تربته الزكية من ظهور المواجد الحيية على المريد . فعدت لتذكيرى ولو كنت مبصرا لذكرت نفسى ، فهى أحوج للذكر اذا لم يكن منى لنفسى

---

1) سورة ق ، آية 16 — 20 .

ذاكرا . فياليت شعرى كيف يفعل فى أى وعظ بعد موعظة الله يـا أحبابنا يسمع ، وفيماذا وقد تبين الرشد من الغى يطمع ، يامن يعطى ويمنع ، ان لم تتم (143 : ب) الصنيعة فماذا نصنع اجمعنا بقلوبنا يا مـن يفرق الجمع ، ولين حديدها بنار خشيتك ، فقد استعاذ نبيك من قلب لا يخشع ومن عين لا تدمع .

اعلموا ــ رحمكم الله ــ أن الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها من الاقوال والاحوال ، ومن الجماد والحيوان وألسنة الملوان ، فان الحق نور لا يضره أن يصدر من الخامل ، ولا يقصر بمحموله احتقار الحامل ، وأنتم تدرون أنكم فى أطوار سفر ، لا تستقر لها دون الغاية رحلـة ، ولا تتأتى معها اقامة ولا مهلة ، من الاصلاب الى الارحام الى الوجود الى القبور الى النشور ، الى احدى دارى البقاء ، أفى الله شك (1) ؟ ! ! ، فلو أبصرتم منافرا فى البريد يبنى ويعرش ، ويمهد ويفرش ، ألم تكونوا تضحكون من جهلة ، وتعجبون من ركالة عقله . ووالله ما أولادكـم وشواغلكم عن الله التى فيها اجتهادكم الا بناء سفر فى قفر ، واعراس فى ليلة نفر . كأنكم بها مطرحة تغثو فيها المواشى ، وتنبو العيون عن حفيرها (144 : أ) المتلاشى « انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم(2)» ما بعد المقيل الا الرحيل، ولا بعد الرحيل الا المنزلالكريم أو المنزل الوبيل ، وأنكم تستقبلون أهوالا سكرات الموت بواكر حسابها ، وعتب أبوابها ، فلو كشف الغطاء منا عن ذرة لذهلت العقوم ، وطاشت الاحلام ، وما كل حقيقة يشرحها الكلام ، « يأيها الناس ان وعد اللـه حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (3) » أفلا أعددتم لهذه الورطة حيلة ، أو أظهرتم للاهتمام بها مخيلة ، تعويلا على عفوه ــ مع المقاطعة ــ وهو القائل « ان عذابى لشديد (4) » أأمنا من مكره

---

2) سورة التغابن ، آية 15 .
3) سورة فاطر ، آية : 5 .
4) سورة ابراهيم ، آية : 7 .

ـ مع المنابذة ـ « ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون (5) » ؟ ! ! أطمعا فى رحمتـه ـ مع المخالفـة ـ وهو يقول : « سأكتبهـا للذين يتقون (6) » ؟ ! ! أو مشاقة ومعاندة « ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب (7) » ؟ ! ! أشكا فيه ! فتعالوا نعد الحساب ، ونقرب العقد ، ونتصف بدعوة الاسلام أو غيرها من اليوم (144 : ب) تفقدوا عقد العقائد عند التساهل بالوعيد ، فالعامى يدهن الاصبع الى جهة ، والعارف يضمد لها مبدأ العصب .

هكذا ، هكذا يكون التعامى ! ! هكذا ، هكذا يكون الغـرور ! « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزءون (8) » وما عدا عما بدا ورسولكم الحريص عليكم ، الرءوف الرحيم يقول لكم : « الكيس من دان نفسه هواها ، وتمنى على الله الامانى (9) » ، فعلام هذا المعول ، وبماذا يتأول . اتقوا الله فى نفوسكم وانصحوها ، واغتنموا فرص الحياة وأربحوها « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وان كنت لمن الساخرين (10) » وتنادى أخرى : يا ليتنا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل (11) » ، وتقول أخرى : « رب ارجعون (12) » ، وتستغيث أخرى : « هل الى مرد من سبيل ! ! ! » فرحم الله من نظر لنفسه قبل غروب شمسه ، وقدم لغده من أمسه ، وعلم أن الحياة تجر

---

5) سورة الاعراف ، آية : 99 .
6) سورة الاعراف ، آية : 156 .
7) سورة الانفال ، آية : 13 .
8) سورة يس ، آية : 30 .
9) رواه الشيخان .
10) سورة الزمر ، آية : 56 .
11) اقتباسا من قوله تعالى : « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل » الاعراف : 53 .
12) سورة المؤمنون : آية 99 من قوله تعالى : حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت .. الآية » .

الى الموت ، والغفلة (145 : أ) تقود الى الفوت ، والصحة مركب الالم ، والشبيبة سفينة تقطع الى ساحل الهرم . وان شاء قال بعد الخطبة : اخوانى ، ما هذا التوانى ، والكلف بالموجود الفانى ، عن الدائم الثانى ، والدهر يقطع بالامانى ، وهادم اللذات قد شرع فى نقض المبانى . الا معتبر فى معالم هذه المعانى ، ألا أذن تصغى الى سميعة ، أحدثها بالصدق ما صنع الموت ! ! ! . مددت لكم صوتى بأواه حسرة على ما بدا منكم ، فلم يسمع صوت هو الغريب الآتى على كل دمنة . فتوبوا سراعا قبل ان يقع الفوت . يا كلفا بما لا يدوم ، يا مفتونا بغرور الموجود المعدوم ، يا صريع جدار الاجل المهدوم ، يا مشتغلا ببنيات الطريق ظهر المناخ وقرب القدوم ، يا غريقا فى بحار الالم ، ما عساك تقوم ، يا معلل الطعام والشراب ولمع السراب ، لا بد أن يهجر المشروب ويترك المطعوم . دخل سارق الاجل بيت عمرك فسلب النشاط وأنت تنظر ، وطوى البساط وأنت تكرب ، واقتلع جواهر (145 : ب) الجوارح ، وقد وقع بك البيت ولم يبق الا أن يجعل الوسادة على أنفك ، وتقول :

لــو خفــف الوجــد ❋ ❋ دعــوت طالب ثــارى

« كلا انها كلمة هو قائلها (4) » ، كيف التراخى والقوت مـــع الانفاس يرتقب وينتظر ! ! كيف الامان وهاجم الموت لا يبقى ولا يذر ! كيف الركون الى الطمع الفاضح وقد صح الخبر ! ! من فكر فى كــرب الخمار تنغصت عنده لذة النبيذ ، من أحس بلغط الحرس فوق جداره لم يصغ بسمعه الى نغمة العود ، من تيقن بذل العزلة هــان عنــده عــز الولايـــة ! !

ما قام خيرك يا زمان بشره أولى لنا ما قل منك وما كفى

---

13) الشورى : 44 .

أوحى الله الى موسى ــ صلوات الله عليه ــ أن ضع يدك على متن ثور فبقدر ما حازته من شعره تعيش سنين ، فقال : يا رب ، وبعد ذلك ؟ قال : وتموت فقال : يا رب فالآن ..

رأى الامــر يفضى الى آخر ، فصير آخره أولا

اذا شعرت نفسك بالميل الى شيء فاعرض عليها غصة (146 : أ) . « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة » (15) ، فالمفروح بــه هو المحزون عليه ! أين الأحباب مروا ، فياليت شعرى أين استقــروا ، واستكانوا ، ولله اضطروا ، واستغاثوا بأوليائهم ففروا ، ليتهم ــ اذ لم ينفعوا ــ ما ضروا ، فالمنازل من بعدهم خالية خاوية ، والغراس ذابلة ذاوية ، والعظام من بعد التفاضل متشابهة ، والمساكن تندب فى أطلالهــا الذئاب العاوية !!

صحت بالربــع فلــم يستجيبوا ... ليت شعرى أين يمضى الغريب
وبجنب الــدار قبــر جديــد ... منه يستقى المكــان الجديــب
غاص فيه قلبى عنــد التماحــى ... قلت : هذا القبر فيه الحبيــب
لا تسل عن رجعتى كيف كانــت ... ان يوم البــين يــوم عصيــب
باقتراب الموت عللت نفســى ... بعد الفنــا ، وكــل آت قريــب

أين المعمر الخالد ، أين الولد ، أين الوالد ؟ !! أين الطارف ، أيــن التالــد ؟ !! أين المجادل أين المجادل ؟ ؟ !

---

14) سورة المؤمنون ، آية : 100 .

15) سورة الانفال ، آية : 42 .

« هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزا » (16) وجـــوه علاهن الثرى ، وصحايف (146 : ب) تنض ، وأعمال على الله تعرض. بحث الزهاد والعباد ، والعارفون والاوتاد ، والانبياء الذين هدى بهم العباد ــ عن سبب الشقاء الذى لا سعادة بعده ، فلم يجدوا الا البعد عن الله ، وسبب حب الدنيا « لن تجتمع أمتى على ضلالة » (17) .

هجرت حياتى من أجـل ليلـى ... فمالى ــ بعد ليلى ــ من حبيب
وماذا أرتجى من حـب ليلـــى ... تسحرنى بالقطيعة عـن قريب

وقالوا : ما أورد النفس الموارد ، وفتح عليها باب الحتف الا الامل، كلما قومتها مثاقف الحدود فسح لها أركان الرخص ، كلما عقدت صوم العزيمة أهداها طرف الغرور فى أطباق : متى ، واذن ، ولكـن ، ورب !! فأفرط القلب فى تقليبها حتى أفطر .

ما أوبق الانفـس الا الامـــل ... وهو غـرور ما عليـه عمـــل
يفرض منه الشخص وهما ماله ... حال ولا ماض ولا مستقبـــل
ما فوق وجه الارض نفس حية ... الا قد انقض عليهـا الاجـــل
لو أنهم من غيرها قد كونـــوا ... لامتلأ السهل بهـم والجبـــل
ما ثم الا لقم قد هيئـت للمـــ ... ـوت وهو الآكـل المستعجـل
(147:أ) والوعد حق والورى غفلة ... قد خدعوا بعاجـل وضللـــوا
أين ذوو الراحات راحت حسرة ... اذ جنبوا الى الثرى وانتقلـوا
لم تدفع الاحباب عنهم غير أن ... بكوا على فراقهـم وأعولـــوا

---

16) مريم : 98 .
17) رواه الشيخـان .

الله فى نفسك أولى من له دخـ ... ـرت نصحـا وعتابـا يقبـل
لا تتركنها فى عمـى وحيـرة ... عن هول ما بين يديهـا تعقـل
حقر لها الغانى وحاول زهدهـا ... فيه وشوقهـا لمـا يستقبـل
وقد الى الله بهـا مضطـرة ... حتى تـرى السيـر عليها يسهل
هذا الفنـاء والبقـاء بعـده ... والله عن حكمتـه لا يسئـل
يا قرة العين ويا حسرتها يـوم ... يوفى الناس ما قـد عملـوا

يا طرداء المخالفة انكم مدركون ، فاستبقوا باب التوبة ، فان رب تلك الدار يجير ولا يجار عليه ، « فاذا أمنتم فاذكروا الله كما هداكم» (18) يا طفيلة الهمة ، دسوا أنفسكم فى زمر التائبين ، وقد أذعنوا الى دعوة الحبيب ، فان لم يكن أكل فلا أقل من طيب الوليمة . قال بعض العارفين: اذا عقد التائبون الصلح مع الله انتشرت رعايا الطاعـة فى (147 : ب) عمالة الاعمال « وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب » (19) .

معانى المجلس ــ والحمد لله ــ نسيم سحر ، اذا انتشقه مخمور الغفلة أفاق ، سقوط هذا الوعظ ينفض ــ ان شاء الله ــ زكمة البطالة . ان الذى أنزل الداء أنزل الدواء ، اكسير هذا العتاب يغلب ، بحكمة جابر القلوب المنكرة عمن كان له قلب ، « انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله » (20) .

---

18) اقتباسا من قوله تعالى : واذكروه كما هداكم ، وان كنتم من قبله لمن الضالين» البقرة : 198 .

19) الزمر : 69 .

20) الانعام : 36 .

الهى دلها من حيرة يضل فيها ــ الا ان هديت ــ الدليل ، وأجلها من غمرة ، وكيف ــ الا باعانتك ــ السبيل ، نفوس صدا على مر الازمان منها الصقيل ، ونبا بجنوبها عن الحق المقيل ، امضها القول الثقيل ، وعثرات لا يقيلها الا أنت ، يا مقيل العثار ، يا مقيل . أنت حسبنا ، ونعم الوكيل .

الرسالة الثالثة

ومن ذلـــك :

اخوانـــى صمت الآذان والنداء جهير ، وكذب العيان والمشار اليه شهير ، أين الملك ، وأين الظهير ، أين الخاصة وأين الجماهير ، أين القبيل وأين العشير ، أين كسرى (21) ، أين ازدشير (22) (148 : أ) صـــدق ــ والله ــ الناعى وكذب البشير ، وعز المستشار وانتهم المستشير ، وسل عن الكل فأشار الى التراب المشير .

---

21) هناك فى التاريخ « كسرى انو شروان » ثم كسرى ابرويز » **فالاول : ملـــك** ساسانى (531 ــ 579 م) ابن قباذ . حارب فى مواقع عدة ، واحتل انطاكية، واجبر على عقد هدنة مع البيزنطيين (555 م) كما استولى على اليمن (570 م) ومن اهم اصلاحاته الداخلية تعديله لنظام الضرائب فى البلاد بما حقق مصلحة الناس والدولة ، كما قام بمسح شامل للاراضى . **اما الثانى : فهو** « كسرى ابرويز » ، وهو ملك ساسانى ايضا (590 ــ 628 م) ابن هرمز الرابـــع . ارتقى العرش بمساعدة الامبراطور موريق البيزنطى (591 » ، **وقد احتـــلّ** القدس عام 614 ، وقد اغتيل فى السجن بعد ان كان هرقل قد انتصر عليه .

22) يطلق هذا الاسم على ثلاثة ملوك فارسيين من السلالة الساسانية ، اهمهـم ازشير الاول مؤسس الدولة الساسانية (نحو 226 ــ 241 م) وقد اعاد بنـــاء وحدة بلاده ، ثم أزدشير الثانى (370 ــ 383 م) خلف شابور الثانى .
وتجدر الاشارة فى هذه المناسبة الى ان ازدشير سابور وزير بهاء الدولـــة البويهى قد أسس فى بغداد دارا للكتب ، كان قوام محتوياتها ما يقـــرب مـــن 10.000 كتاب عام 990 م .

خذ من حياتك للممات الآتى ... وبدار ما دام الزمان موات
لا تغترر فهو السراب بقيعة ... قد خدع الماضى به والآتى
يا من يؤمل واعظا ومذكرا ... يوما لينقذه من الغفلات
هلا اعتبرت ، ويا لها من عبرة ... بمدافن الآباء والامهات
قف بالبقيع ، وناد فى عرصاته ... فلكم بها من جيرة ولدات
درجوا ولست بخالد من بعدهم
متميز عنهم بوصف حياة
والله ما استهللت حيا صارخا ... الا وأنت تعد فى الاموات
لا فوت من درك الحمام لهارب ... والناس مرعى معرك الآفات
كيف الحياة لدارج متكلف ... سنة الكرى بمدافن الحيات
أسفا علينا معشر الاموات لا ... ننفك عن شغل بهاك وهات
ويغرنا لمع السراب فنغتدى ... فى غفلة عن هادم اللذات
والله ما نصح امرءا من غيه ... والحق ليس بخافت المشكاة

يا من غدا وراح ، وألف المراح ، يا من شرب الراح (148 : ب) ممزوجة بالعذاب القراح ، وقعد لقيان صروف الزمان مقعد الاقتراح . كأنك ــ والله ــ باختلاف الرياح وسماع الصياح، وهجوم غارة الاجتياح، فأديل الخفوت من الارتياح ، ونسيت أصوات الغناء برنات النياح ، وعوضت غرر النوب القباح من غرر الوجوه الصباح ، وتناولت الجسوم الناعمة أيدى الطراح ، وتنوسيت العهود الوثيقة بكر المساء والصباح ، وأصبحت كماة النطاح من تحت البطاح ، وحملة المهندة الرماح ، ذليلة من بعد الجماح ، ولو كان هذا الموت لا شىء بعده لهان علينا الامر ، واحتقر الهول ، ولكنه حشر ونشر ، وجنة ونار ، ومالا يستقل به القول .

يا مشتغلا بداره ، ورم جداره عن انزاعه الى النجاة وبداره ، يا من صاح بانذاره شيب عذاره . يا من صرف عن اعتذاره باقذائه واقداره ، يا من قطعه بعد مزاره وثل أوزاره ، يا معتلقا ينتظر هجوم جـــزاره . يا مختلسا للامانة يرتقب مفتش ما تحت ازاره . يا من أمعن فى خمـر (149 : أ) الهوى خف من اساره ، يا من حالف مولى رفه توق من انكاره. يا كلفا بعارية ترد ، يا مفتونا بأنفاس تعد ، يا معولا على الاقامة والرحال تشد ، كأننى بك وقد أوثق الشد ، وألصق بالوسادة الخد ، والرجل تقبض والاخرى تمد ، واللسان يقول : يا ليتنا نرد !!

انا للـــه لـه مـــا أشغـــل	الانسـان عـــن شانـــه
يرتاح للاثواب يزهـى بهـــا	والخيـط مغـزول لاكفانـــه
ويخزن الفلـــس لوراثـــه	مستنفـــدا مبلـغ امكانـــه
قوض عن القانى رحال أمـرى	مد اليـــه كـف عرفانـــه
ما ثـــم الا موقـــف راهـن	قـد وكـل العـدل بميزانـه
مفـــرط يشقـى بتفريطـــه	ومحسن يجـزى باحسانـــه

يا هذا ، خفى عليك فرض اعتقادك فالتبس الشحم بالورم . جهلت قيم المعادن فبعت الشبة بالذهب فسد حسن ذوقك فتفكهت بحنظلة . أين حرصك من أجلك ؟ أين قولك من عملك ؟ يدركك الحياء (149 : ب) مـن الطفل فتتحامى حمى الفاحشة فى البيت بسببه ، ثم تواقعها بعين خالـق العين ، ومقدار الكيف والأين !! تالله ما فعل فعلك بمعبوده من قطـع بوجوده ، « ما يكون من نجوى ثلاثة . . » الآية (23) . تعود عليك مساعى الجوارح التى سخرها لك بالقناطر المقنطرة بالذهب والفضة ، فتبخل منها فى سبيله بفلس ، وأحد الامرين لازم : اما التكذيب ، واما الحماقـــة ،

---

23) سورة المجادلة ، آية : 7 .

وجمعك بين الحالتين عجيب !! يرزقك السنين العديدة من غير حق وجب لك ، وتسيء الظن به فى يوم توجب الحق ، وتعتذر بالغفلة ، فما بال التمادى ؟ !! تعترف بالذنب فما الحجة من الاصرار ؟ !! « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا » (24) يا مدعى النسيان ، ماذا فعلت من بعد التذكير ؟ يا معتذرا بالغفلة أين نضرة التنبيه ؟ يا من قطع بالرحيل ، أين الزاد ؟ يا ذنابة الحرص ، الى كم تلجلج فى ورطه الشهد؟ يا نائما ملأ عينه جدر الاجل يريد أن ينقض يائمل الاغترار قرب خمار الندم تدعى الحقوق بالصنائع (150 : أ) وتجهل هذا القدر !! تبذل النصح لغيرك ، وتغش نفسك هذا الغش !! اندمل جرح توبتك على عظم ، قام بناء عزيمتك على رمل نبتت خضراء دعوتك على دمنة . عقدت كفك من الحق على قبضة ماء «أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا .. » الآية (25) اذا غام جو المجلس ، وابتدا رشم غمام الدموع ، قالت النفس الأمارة : حوالينا لاعلينا ، فذللت رياح الغفلة ، وسحاب الصيف تصفاف. كلما شد طفل العزيمة كفه على درة التوبة ما نعته طير الشهوة على ذلك بعصفور ، اذا ضيق الخوف فسحة المهل سرق الامل حدود الجار قال بعض الفضلاء :

كانوا اذا فقدوا مطلوبهم تفقدوا قلوبهم . ولو صدق للواعظ الأثر اللهم لا أكثر . طبيب يداوى الناس وهو عليل !! والمتفطن قليل ، فهل الى الخلاص سبيل ، أنظرنا بعين رحمتك التى وسعت الأشياء ، وشملت الاموات والاحياء ، يا دليل الحائرين دلنا ، يا عزيزا ارحم ذلنا (150 : ب) يا ولى من لا ولى له كن لنا ان أعرضت عنا ، فمن لنا ؟ نحن المذنبون ، وأنت غفار الذنوب،فقلب قلوبنا يا مقلب القلوب ، واستر عيوبنا يا ستار العيوب ، يا أمل الطالب ويا غاية المطلوب . أنت حسبنا ونعم الوكيل .

---

24) الاعراف : 58 .

25) سورة فاطر ، آية : 8 .

الرسالة الرابعة

ومن ذلك الغرض مما خاطب به أحد الفضلاء :

الحمد لله على نعمة الاسلام ، وبنور النبوة نجلو غياهب الظلام ونسعى الى دار السلام . حفظك الله يا أبا سعيد ، وأرشد سعيك وتدارك بالمرمة وهيك ، قبل أن يسمع الموت نعيك . وقفت على براعتك الطويلة الذيل ، المطفقة فى الكيل ، مشتملة على تهويل ، ومرعى وبيل ، وعتاب طويل ، وتبجح بألفاظ وأقاويل ، لم ينجع فيها طب ابن مقدم ولا علاج ابن عبد الجليل . ما ثم الا عوائد يشتكى من لزومها ، ووخز كلومها . وبعد تتطور من طول مداه ، ووهم يقلق من اشتباك لحمته بسداه ، مع الاعتراف منك ، وبالعثور من الشيخ الواصل على الكنز (151 : أ) الحاصل ، ومصاحبة من يطيق بالحسام الفاصل ، ان كان الفتح حاصلا فما معنى الشكوى ؟ أو لم يحصل فحتى متى البلوى ؟ وهذا الدين الذى يلوى ، وغريمه مع اللدد يهوى ، والهوى مع انصرام العمر فى هذا المهوى . أين الثمرات يا شجر الجور ؟ أين الراهبى يا عاجلى البظة فى است الثور ؟ !!

ثناؤكم على الناس تقليد ، وشأنكم فى الاختبار شأن البليد ، وعقولكم يرتفع عنها عقل الوليد !!

ثم ان هذه العوائد التى تشتكى ، ويضحك لها ثم يبكى ، ويتلذذ بذكرها حين تحكى . لم تضايق الايمان ، ولا رفعت ــ والحمد لله ــ الامان ؟ انما هى ــ بزعمكم ــ حب دنيا لا يعارض العقد ، ولا يباين الوعد . والعوائد تعالج مع بقائها ، وعمران نافق بها ، بأودية شرعية تنير عبوسها ، وتذهب بؤسها ، وتملس أديمها وتؤنس عديمها . صعب عليكم استعمالها ، وسهل لديكم اهمالها ، ورمتم الغايات بالترهات ، والحقائق بالشبهات ، ودعوى الدرجات مع الدرجات ، والشريعة لم تذهب ، والمدارس لم تخرب ، والكتب لم تحرق ، وسيرة النبى

(151 : ب) والسلف الصالح لم تختلس ، ولم تسرق بينكم من الوسائل الشرعية والذمم المرعية .

أين الصدقات اذا حدقت الى الاكف الحدقات ؟ أين زلف الليل ؟ أين الزكاة المتوعد ممسكها بالويل ؟ أين الجهاد وارتباط الخيل ؟ أين الحج وركبانه يتدافع تدافع السيل ؟ أين تلاوة القرآن الذى تطمئن به القلوب ؟ أين الخلق الذى لا يصح دونها المطلوب ؟ أين الحظ المغلوب ؟ أين الصبر والسكون وانتظار الفرج ممن يقول لشىء كن فيكون ؟ أين قيدها وتوكل ؟ أظنه أشكل ؟ أين الانفة من الاشتهار ؟ أين الانيس بالخلوة بياض النهار ؟ عدل عن ذلك كله الى البخل على المساكين ، والسلاطة على الدكاكين . وهجر المورد المعين ، والتعويل على الوصول الى الله من خوخة ابن سبعين ، والحرمان تتضاعف مكاسبه ، والمقصد الخبيث يمده الشيطان بما يناسبه . مقام التوبة لم يحصل ، وبسوء الولاية تفصل ؟ عفو والعقد الصحيح لم يبرم ، والمحرمات بعد لم تحرم والمواجد يخطب بها المحل الاكرم !!! القواعد بعد مضاعة ، ومعرفة الله قد (152 : أ) قد جعلت براعة الخلق لم تهذب ، والنفوس فى التماس الكمال تعذب . ثمرات العمل لم تحصد ، وغاياتها فى الحوانيت تقصد . كأن جمهور المسلمين ممج مهمل ، كأن الانبياء لم تبين ما يعمل ، كأن الشريعة ليس لاوضاعها سوق ، ولا لنخلها بسوق . كأن الشافعى أو مالك ليس بسالك ، وأن من دون أشياخكم هالك . هذا لو كان لكم أشياخ ، أو ليسير جيرتكم مناخ !!

انما هى أعلام للشهرة تنصب ، وتيجان للحظوظ تعصب ، النسى يذكر والذكر ينسى ، وظهور الولد والمساكين تعرى ، والخليلى يكسى ، وابدأ بمن تعول يوسع رسمه طمسا ، والاعتدال يحكم فيه الجدال . بالله خلوا عنكم الاصطلاح الخالى ، وهذا التنوين الغالى مع حرمان المخالى. والقنوع بالفراع مع حرونة المزاع . والغليان الذى يبغضكم الى الله والى خلقه ، وهمم الشهداء فى رقة، مع الغفلة عما أوضح لكم الشرع من

حقه ، وتخطى الطاهر المضمون الى المشكل المضنون . فلو كان سيركم مستقيما لم يكن القياس عقيما . عميان قد هجرت (152 : ب) الكحال ، وأملت فى رد ابصارها المحال !!

ما الذى رابكم ــ آنس الله اغترابكم ــ من سيرة السلف الذيــن تجروا وكسبوا ، وانتموا لغنى الاكف وانتسبوا ، وتصدقوا ووهبــوا ، وجاهدوا وحجوا ، وما انحرفوا ولا لجوا ، وبسيرة أعلامهم احتجوا ، وسعوا والتمسوا ، وأكلوا الطيب ولبسوا ، وجوارحهم بميزان الشريعة أرسلوا وحبسوا ، وشهد لهم بالخلاص عقدهم الذى حفظوا ودرسوا . لم يزمعوا لغير الضرورة طلاقا ، وأشفقوا من فراق أهليهم اشفاقــــا ، ولا حلوا لحسن العهد نطاقا ، ولا قتلوا أولادهم املاقا (26) ولم يضرهم ــ مع الاستقامة ــ معاشهم ، ولا قطع بهم ــ عن الله ــ أثاثهــم ولا رياشهم ، بل ــ الى فئة الحق ــ انحياشهم ، وأنتم ــ على الحقيقة ومن لكم بذلك ــ أوباشهم . وان قلتم : وسعوا ما ضاق عنه احتمالنا ، ولــم تستطعه أعمالنا ، فهلا تفطنتم وانتبهتم ، وتكفلتم هديهم وتشبهتم ؟ !!

تظنون أنكم غاب عنكم ما دركتم ، وأعجزوا عما اليه تحركتــم ! وهب أن ثم مقامات عالية ، ولمقدمات أصل (153 : أ) الشريعة بزعمكم بالية ، هلا استربتم اذا لم تدركوها ، وان لم تحصلوا منها الا على أن تحكوها ، فرجعتم الى الاصل المجرد والطريق المقرر ، فمن ضل وجب عليه أن يعرس حتى يصبح ، ويبدو المميع ويتضح . فاقتحام المفــاز بلا دليل شأن غير النبيل ، وبالانقطاع كفيل .

ويا ليتكم بلغتم درجة البله المشهود بتوفيقهم ، وصحة طريقهم.

---

26) اقتباسا من قوله تعالى : « ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم » الانعام : 151 . او قوله تعالى : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم .. » الاسراء : 31

ومن أجهده الحزن أسهل ، ومن تحير وجب عليه أن يسأل ، وترك اللجاج أجمل ، ومن يرب الامر يتأول ، ومن لم يستيقن فلا يعجل ، والطريق التى احتقرتم ــ والله ــ أهمل ، وأحجكم بالشيخ عبد الجليل (27) الذى ظلمتموه ، وبكشف الغيوب اتهمتموه ، وبالولاية حددتموه ووسمتموه ، وهو يقوم على السبب بيعا وشراء ، واعمارا وكراء ، ويصلح من كرمه الذى لم يبلغه ولم يرمه ؟ فان قلتم ذلك شيخ هداية ، فقد كان ذا بداية ، ومفتقرا مثلكم الى داية ، فلم تلح عليه من شىء مما أنتم عليه آية ، ولم يطلق زوجه مجانا ، ولا تطارح فى مصلى الجنائز عريانا ، ولا خطت (153 : ب) منه فى مجال النجاسات رجل ، ولا دب الى وادى الحمة (26) كأنه عجل . فعلام عولتم فيما ناولتم ، القديم مخالف السمت ، والحديث متهم بالعوج والامت ، أعلى أهل السبت ، ومن حكم عليه بالكبت ؟!!

نستغفر الله ذا الجلال ، ونستهدى به من الضلال ، ونتبرأ اليه من نفوس عجل لها العذاب (27) ، حالك يا أبا سعيد والقريب البعيد فمورد المودة لم ينضب معينه ، ولا التبس بالشك يقينه ، ومن أعان مستقيما

---

27) لم يعرف به المؤلف اكثر ، فلعله شيخ معاصر ، له ملابسة ، موضوع الرسالة .

28) الحمة او الحامة : هى Alhama بلدة بالاندلس فى الجنوب ، تقع قرب مدينة ريحانة من اعمال « المرية » ، وقد أطلق عليها العرب هذا الاسم نسبة الى العين الحارة التى بها ، والتى هى مقصد كثير من ذوى العلل والاسقام ، وما تزال العين باقية حتى اليوم ، بالاضافة الى جزء من الحمامات العربية القديمة . وقد وصفها ابن الخطيب نفسه فى « معيار الاختيار » بقوله :
« اجل . الصيد والحجل ، والصحة وان كان المعتبر الاجل ، وتورد الخدود وان لم يطرقها الخجل . والحصانة عند الهرب من الرهب ، والبر كانه قطع الذهب ، والحمة التى حوضها ينهق بالنعيم ، مبذولة للخامل والزعيم ، تمت ثنيتها بالنسب الى ثنية النعيم ، قد ملأها الله اعتدالا ، فلا تجد الخلق اعتياضا عنه ولا استبدالا ، وانبط صخرتها الصماء عذبا زلالا ، قد اعتزل الكدر اعتزالا .. »
راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ص : 39 ، وابن بطوطة فى « الرحلة» ج 2 ص 187 .

فالله يعينه . ومن يتصل بكم من جفاء فهو ــ علم الله ــ تأديب وتهذيب، وغيره يجدها ولى حبيب ، والله شهيد رقيب . ولو كان بودى لم تكن يدك مغلولة ، ولا نفسك على الشح مجبولة ، ولا ولدك عاريا ذليلا ، ولا الخير ــ ببيتك الخالى بالحبوب المختزنة ــ قليلا ؟ ولاهمتك على الجهاد فى سبيل الله كاسلة ، ولا خبائث المصطلحات عن حدبك ناسلة ولا استعديت على شحك بما رزئت من مالك ودمك ، سماعا من فمك ، فأصبحت من أفقها والرفض من شيمتك (154 : أ) فتفطن لما نزل بك ، وأسأل الله صلة بسيك ، وأعلم أنى بذلت لك النصيحة منذ زمان برسالة الغيرة على أهل الحيرة ، وقد علمت ثمال أمرك ، وضرب زيدك وعمرك. فلو قفلت ما جلت ، ولو سمعت ما كنت ، وفى المحال طمعت ؟ ولكنك معتدل التصريف ، مجانب للتحريف ، منفق فى سبيل الله للتليد الفانى والطريف ، جار من الاحسان ــ لك ولولدك ــ على السنن الشريف .

هذا جواب سحاءتك المشجعة ، ورسالتك القليلة الطحن الكثيرة الجعجعة (29) . وقد أغرتنا ــ والحمد لله ــ تلك الغرارة ، « وان النفس لأمارة »)30) ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ؟

⁂

تم الكتاب (31) بحمد الله المعين وبتمامه كمل جميع الديوان ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم الانبياء والمرسلين ، صلاة تحل العقد ، وتفرج الكرب ، آمين رب العالمين ، وسلم كثيرا الى يوم الدين .

(ونسخ) فى خامس ذى الحجة الحرام ، من عام ثلاثة وسبعين وثمان مايــة .

---

29) اقتباسا من المثل العربى « جعجعة ولا ارى طحنا » والطحن : الدقيق ، والجعجعة صوت الرحى ، ويضرب المثل لمن يعد ولا يفى .

30) اقتباسا من قوله تعالى : « وما ابرىء نفسى ان النفس لامارة بالسوء » سورة يوسف ، آية : 53 .

31) « الريحانة » .

مراجع التحقيق و الدراسة

مـــراجع التحقيـــق والدراسة

المصـــــادر العربيـــــة :

1 ــ الاحاطة فى اخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، الجزء الاول . تحقيق عبد الله عنان ط. دار المعارف . مصر 1955 .

2 ــ اخبار العلماء باخبار الحكماء ، للقفطى ، ط. القاهرة . 1326 .

3 ــ ارشـاد الاريب الى معرفة الاديب ــ معجم الادباء . لياقوت الحمـــوى ط. مصر 1909 .

4 ــ ازهار الرياض فى اخبار عياض . لشهاب الدين احمد المقرى ، تحقيق مصطفى السقا والابيارى وشلبى . ط. القاهرة 1939 .

5 ــ الاعلام . قاموس لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين . خير الدين الزركلى . الطبعة الثانية .

6 ــ الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ، لابى عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، تحقيق على محمد الحجاوى . مصر .

7 ــ الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى للشيخ أبى العباس احمـــد الناصرى . ط. الدار البيضاء 1954 .

8 ــ انس الفقير وعز الحقير لابى العباس احمد الخطيب المعروف بابن‌قنفذ تحقيق محمد الفاسى . المركز الجامعى بالرباط 1965 .

9 ــ الآثار الباقية عن القرون الخالية . لابى الريحان محمد البيرونـــى ، تحقيق ادورد ساشـو ، ط. ليبسك 1923 .

10 ــ الاغانى لابى الفرج على بن الحسين الاصفهانى . ط. دار الكتـــب المصرية 1927 .

11 ــ بغية الوعاة فى طبقات اللغوين والنحاة . للامام السيوطى . ط. مصر 1326 .

12 ــ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . للقاضى محمد بن على الشوكانى . ط. مصر 1348 .

13 ــ بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس ، لاحمد بن يحيى بن عميرة الضبى . مدريد 1883 .

14 ــ البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان . للشيخ ابى عبد الله المديونى .
تحقيق أبى شنب . ط. الجزائر 1908 .

15 ــ التاج . تاج العروس من جواهر القاموس . للشيخ مرتضى الزبيدى مصر 1307 .

16 ــ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . لابى زيد ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون .
تحقيق ابن تاويت الطنجى . القاهرة 1951 .

17 ــ تاريخ الادب العربى . عمر فروخ . دار العلم للملايين ببروت 1965.

18 ــ تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام لابن الخطيب)
تحقيق د. أحمد العبادى ، ومحمد ابراهيم الكتانى. الدار البيضاء1964

19 ــ تاريخ اسبانيا الاسلامية . للمستشرق ليفى بروفنسال ، (الجزء الثانى من أعمال الاعلام لابن الخطيب) بيروت 1956 .

20 ــ تاريخ الفكر الاندلسى للمستشرق انخل بالنثيا ، تعريب د. حسين مؤنس . مصر 1955 .

21 ــ تاريخ آداب اللغة العربية . جرجى زيدان . دار الهلال. مصر 1931.

22 ــ تاريخ الرسل والملوك لابى جعفر محمد بن جرير الطبرى . دار المعارف . مصر 1963 .

23 ــ التكملة لكتاب الصلة . للامام أبى عبد الله محمد القضاعى (ابن الابار) مصر 1955 .

24 ــ جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس ، لابى عبد الله بن فتـــوح الحميدى . تحقيق محمد بن تاويت الطنجى . القاهرة 1371 .

25 ــ جمهرة الاولياء واعلام اهل التصوف . للشيخ محمود ابى الفيـــض المنوفى . القاهرة 1967 .

26 ــ جمهرة انساب العرب لابن حزم . دار المعارف . مصر 1948 .

27 ــ ابن الخطيب من خلال كتبه . محمد بن ابى بكر التطوانى . تطـــوان 1954 .

28 ــ الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة . للشيخ احمد بن على المشهور بابن حجر العسقلانى . حيدر اباد 1350 .

29 ــ دائرة المعارف الاسلامية . (المستشرقون) تعريب ابراهيم خورشيد وزملاؤه 1933 .

30 ــ دائرة المعارف (اللبنانية) باشراف فؤاد افرام البستانى . بيروت 1962 .

31 ــ ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب للسان الدين بن الخطيب . (مخطوطة) بالخزانة العامة بالرباط .

32 ــ سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن اقبر من العلماء والصلحـــاء بفاس . للشيخ محمد بن جعفر الكتانى . طبعة حجرية بفاس .

33 ــ الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة . لابى عبد الله محمد بن محمد المراكشى . تحقيق الدكتور احسان عباس . بيروت 1964 .

34 ــ الشعر والشعراء . لابى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . تحقيق أحمد محمد شاكر . القاهرة 1966 .

Obras de Autores Europeos

Aguado Bleye
Historia de Espania
TI, Madrid 1958

ALARCON, Y GARCIA DE LINARES
— Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la Coronica de Aragon
Madrid. Granada, 1940

BROCKELMANN
— Geschichte der Arabischen Literature
Berlin 1898 - 1902

REMIRO, GASPAR
— Correspondencia a diplomatica entre Granada y Fez (s. XIX
Granada, 1616

GAYANGOS
— The history of the Mohammedan dynsties in Spain
Londres, 1840 - 1843

HUICI, AMBROSIO
— Las grandes batallas de la reconquista
Madrid, 1956

LAFUENTE ALCANTARA, EMILIO
— Inscripciones arabes de Granada
Madrid, 1860

LAFUENTE ALCANTARA, MIGUEL

— Historia de Granada

Granada, 1843

LEON AFRICANO

— Descripcion de Africa

Tetnan, 1952

LEVI, PROVENCAL

— La voyage de Ibn Battuta dans le royanme de Grenade

Melanges william Marcais

Paris, 1950

MULLER

— Beitrage

Munich, 1866.

SANCHEZ ALBORNEZ, CLAUDIO

— La Espana
Madrid, 1960

SACO DE LUCENA PAREDES, LUIS

— Documentos arabigo-granadinos
Madrid, 1961

SIMONET

— Descripcion del reinode Granada bajoda de los nazarits
Madrid, 1860

BIMONET

— Descripcion del reino de Granada tomada de los autores arabigos
Granada, 1872

PRIETO Y VIVES

— De como debio nazer elreino de Granada
Madrid, 1927